الثورة الداغستانية/الشاشانية 1834 – 1859

د .عصمت برهان الدين عبدالقادر(*)

مقدمة

ترجع حدود إقليم الداغستان ونظامه الحالي بوصفه إقليما روسياً إلى عام 1860. يقع الإقليم في القفقاس الشمالي بين خطي عرض°43 , 3 , 41 شمالاً ويحتل مساحة مقدارها (3 , 50) كم^2 (13228 ميل مربع) يحده من الشمال إقليم كالميكا (القولموق)، ومن الشرق بحر قزوين، ومن الجنوب أذربيجان، ومن الجنوب الغربي جورجيا، ومن الغرب بلاد الشاشان[1].

يتكون الاسم من مقطعين الأول (داغ) وهي لفظة تركية تعني (الجبل)، والثاني (ستان) لفظة فارسية تلحق بالكلمات للدلالة على اسم المكان[2]. وتعنى الكلمة ارض الجبال.

تنقسم بلاد الداغستان إلى منطقتين: منطقة الجبل ومنطقة السهل وتنقسم أيضا إلى ثلاثة أقسام:

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) أطلس التاريخ الإسلامي، صنفه هاري. و. هازارد، ترجمة وتحقيق إبراهيم زكي خورشيد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1954)، ص 27، 29؛ محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، جـ1 (جدة: دار الشروق، 1983) ص 145.

(2) إبراهيم زكي خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية، م9، ط1، (القاهرة: مكتبة دار الشعب، د. ت)، ص 98 ـ 99.

1. قسم الشمال: يتكون من مقاطعتي (شامخال ومانوخة).
2. قسم الوسط: يتكون من قبائل تاركين وإمارات القوموق وتاباساران وقره قايتاق.
3. قسم الجنوب يتكون من إمارة قوربين ومنطقة قوربين[3].

وتؤلف الجبال ثلاثة أرباع الداغستان، وتنحدر الأنهار من المرتفعات نحو البحر وهي شديدة الانحدار، وأطوال أنهارها نهر تيرك ونهر صولاق، وتصبح الأرض جميعها سهلية ابتداء من مصب نهر تيرك[4].

تضم بلاد الداغستان مجموعة كبيرة من القبائل والعشائر، بعضها محلي، والبعض الآخر يعود إلى القبائل التي سكنت السهول[5]. وتدعى هذه القبائل بحسب مناطقهم الافشار (الاوار) والاندي (اللزكي) والقوموق وتاباساران وسمور وزاقاتالي وغونزيب ومختولوين وغيرها[6]. واشهر هذه القبائل هي داغستان وهي القبيلة التي أعطت اسمها للبلاد وتنتشر في المناطق المرتفعة وكانوا يعرفون باسم

(3) يوسف عزت باشا، تاريخ القوقاز، تعريب عبدالحميد غالب بك، (مصر: مطبعة عيسى البابي، 1933)، ص 247.

(4) محمد سيد غلاب، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، (الرياض: المطابع الأهلية، 1979) ص 744.

(5)Journal of the central Asian Society; vol. V. part III. IV 1918 p. 77.

(6) احمد وصفي زكريا، عشائر الشام، جـ1 ـ 2، ط2، (دمشق: دار الفكر، 1983)، ص 697. ومن الجدير بالذكر ان المصادر والمراجع تختلف في اصل الداغستان؛ فأحدها يذكر انهم من بقايا الأقوام التركية الواردة من جهة الشرق.

انظر: م. م. الرمزي؛ تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، م1، ط1، (اورنبرغ: المطبعة الكريمية والحسينية، د.ت)، ص 256؛ بينما ينسبهم آخر إلى الجركس. انظر: زكريا، المرجع السابق، ص 685؛ وتنسبهم مراجع أخرى إلى العرب. انظر: غلاب، المرجع السابق، ص 746؛ البار، المرجع السابق، ص152.

الداغستان التركي، والقوموق الذين يقيمون في الشمال، والاندي وهم مجموعة من القبائل يعرفون باسم اللزكي[7].

اعتنق الداغستان الإسلام منذ وقت مبكر ومنذ الفتوحات العربية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأول من اعتنق الإسلام منهم قبائل القوموق[8]. وعملوا على نشره بين الجركس وبقية المناطق الغربية في القفقاس الشمالي[9]. كما يوجد بينهم يهود ونصارى، وتصل نسبة المسلمين في الداغستان حوالي 69, 94 % من مجموع السكان البالغ حوالي اكثر من مليون نسمة[10]. وهم سنه على مذهب الإمام الشافعي[11].

تعدد اللغات في بلاد الداغستان ولكل قبيلة وعشيرة لغتها الخاصة بها منها لغة الافار. والقوموق القايتاق، الدارغا وغيرها، ومنهم من يتكلم الفارسية، اما في الدربند والسواحل فيتكلمون الاذرية (الجغطاي) إلا ان لغة العلم والأدب في جبال الداغستان فهي اللغة العربية التي يتقنها الأهالي وخاصة العلماء والأعيان، ويكنون لها احتراما كبيرا باعتبارها لغة الدين الإسلامي[12].

---

(7) غلاب، المرجع السابق، ص 745، 746.

(8) زكريا، المرجع السابق، ص 698؛ غلاب، المرجع السابق، ص 745.

(9) Lewis Massignon, "Islam in the united Soviet Socialist Republics", The Moslem world; Vol. XVII, No. 4, october, 1927, p. 364.

(10) Sophy Bobrovinikoff; "Moslems in Russia", The Moslem World, Vol. I. No. 1 January, 1911, p. 24.

(11) شانتال لمربيه كلكجي، الكسندر بينفس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي، تعريب إحسان حقي، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1977)، ص25.

(12) Donald. W. Treadgold, Twentieth Century Russia (Chicago 1976, p. 301);
خورشيد المرجع السابق، ص 108 ـ 109.

الصراع على السيادة

كانت بلاد القفقاس مسرحا لصراع القوى الكبرى عبر التاريخ، ففي القرن الأول قبل الميلاد دخلت قوات القائد الروماني بومبي بلاد الداغستان واحتلت جنوب قفقاسيا[13]. كما وصلتها طلائع الفتوحات الإسلامية أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام 22هـ (643م) ثم تتابعت فتوحات الجيوش الإسلامية وتم فتح بلاد الداغستان عام 105هـ (723م) في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك وكانت دربند (باب الأبواب) عاصمة الداغستان ثغرا من الثغور الإسلامية ومنها انتشر الإسلام في بقية المناطق المجاورة.

شهدت بلاد القفقاس عامة وبلاد الداغستان خاصة حروبا طاحنة وخاصة بعد زوال الحكم العربي الإسلامي عنها، حيث اجتاحتها قوات المغول عام 1222م ومنها انسابت إلى بقية المناطق الروسية، والتي اصطرعت فيما بينها وجرت حروب متعددة بين مختلف القبائل المغولية مما زاد في دمار البلاد[14].

في عهد السلطان العثماني مراد الثالث (1574 – 1595) وفي عام 1583 بالذات سيطر العثمانيون على بلاد الداغستان، ومنها بدأت صفحة جديدة من تاريخ المنطقة، حيث نبهت السيطرة العثمانية عليها أطماع الروس[15] من الشمال،

(13) عزت باشا، المرجع السابق، ص 249.

(14) للتفاصيل عن اجتياح المغول للمنطقة وحكمهم إياها والصراع الذي دار بين مختلف قبائلهم، انظر: الباز العريني، المغول، (بيروت: دار النهضة العربية، 1967)؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد، المغول في التاريخ، جـ1، (بيروت: دار النهضة العربية، 1980).

(15) للتفاصيل عن الروس والقبائل التي أتحدث تحت هذا الاسم وانتشارهم ومعاركهم مع الأقوام المجاورة، انظر: الرمزي، المرجع السابق، ص 190 وما بعدها.

والفرس من الجنوب، فأصبحت مثار أطماع الدول الثلاث فتناوبت على احتلالها[16].

لم يدم حكم العثمانيين لبلاد الداغستان طويلاً إذ سرعان ما احتلها الفرس عام 1606[17]. ومنذ ذلك الوقت اصبح الصراع على السيادة في المنطقة يدور بين الفرس والروس.

قام الروس بمحاولتهم الأولى لإخضاع بلاد القفقاس الشمالي بما فيها داغستان عام 1594 حيث استطاع جيش روسي بقيادة الأمير خفر شتيتين الاستيلاء على مدينة تارخو وبناء سلق (قوى صوي)، إلا ان الروس هزموا على أيدي أبناء المنطقة واكرهوا على الانسحاب مجتازين نهر سلق، وفي عام 1604 أرسلت حملة أخرى إلى تارخو بقيادة بترولين ويلسجيوف إلا انها فشلت هي الأخرى[18].

عندما مات الشاه عباس (1587 – 1629م)، اخذ ظل الدولة الصفوية يتقلص في عهد الشاه حسين (1694 – 1722م) الذي اتسم عهده بالضعف، وأرسل أمراء المنطقة رسلهم إلى الدولة العثمانية يطلبون منها الحماية واعتبارهم من رعاياها، إلا ان الدولة العثمانية كانت مشغولة بحروبها المتعددة في أوربا[19]. فكان أن استغل القيصر الروسي الشهير بطرس الكبير (1682 – 1725م) الفرصة فانقض على دربند عاصمة الداغستان عام 1722 وعقدت معاهدة في نفس العام مع

(16) برهان الدين الداغستاني، "الشيخ شامل زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين"، مجلة الرسالة، العدد 727، س 15، 9 يونية 1947، ص 649.

(17) علي حسون، العثمانيون والروس، ط1، (بيروت) دمشق: المكتب الإسلامي 1982)، ص 70.

(18) خورشيد، المرجع السابق، ص 105.

(19) البار، المرجع السابق، ص 153.

كل من الدولتين الصفوية والعثمانية، دانت على أثرها المقاطعات والأراضي الواقعة على الساحل الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) لروسيا[20].

لم يطل حكم الروس في الداغستان ذلك أن نادر شاه (1736 – 1747م) نجح في توحيد بلاد فارس واستعاد المناطق التي كانت بأيدي الروس عام 1735[21]، إلا ان الروس استطاعوا اجتياح البلاد عام 1775، وفي عام 1784 خضع لهم القسم الأكبر من القفقاس، وقد حاول القاجاريون الذين حكموا بلاد فارس للفترة (1779 – 1925م) استعادة سيطرتهم على المنطقة فاشتعلت الحرب بين الطرفين لفترة من الزمن[22].

من اجل تقوية نفوذها في المنطقة استطاعت روسيا ان تقيم اتحادا مع جورجيا عام 1801، واصبح الإقليم الجورجي إقطاعا لروسيا زاد من النفوذ الروسي في بلاد القفقاس[23].

ومرة أخرى حاولت بلاد فارس استعادة مناطق نفوذها السابقة يساندها في ذلك بعض الأمراء المحليون، واستمرت الحرب حتى عام 1806 إذ هزمت القوات الفارسية وقوات الأمراء المحليين وقضى بذلك على الحكم الفارسي في داغستان[24]. وفي سنة 1812 تعرضت القوات الفارسية لهزيمة منكرة أخرى على أيدي الجيوش الروسية، واضطرت على أثرها للتخلي عن أية مطامع لها في بلاد

---

(20) History of the USSR, P1 (Moscow: 1977), p 160.

(21) خورشيد، المرجع السابق، ص 106 ـ 107.

(22) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، م1، جـ1، ط3، (بيروت: دار الفكر، 1971)، ص 189.

(23) History of the USSR; OP; Cit, P, 108 . حسون، المرجع السابق، ص 95 .

(24) البار، المرجع السابق، ص 154.

القفقاس، كما تنازلت لروسيا عن دربند ومقاطعات أخرى، ووقعت تأكيدا لذلك معاهدة كلستان عام 1813[25].

بعد ان توطد الحكم الروسي في المنطقة، مارست روسيا حرب إبادة سقط فيها العديد من سكان البلاد الذين لم يكفوا عن المقاومة[26].

وقد عمدت روسيا إلى الاستيلاء على الأراضي وتوزيعها على الروس وعلى الموالين لهم، وتحول أبناء المنطقة من الفلاحين البسطاء إلى إجراء يعملون لدى المستوطنين الجدد ولدى النبلاء والأمراء[27].

على الرغم من أن سكان القفقاس الشمالي ينتسبون إلى لغات متعددة الأصول ويشكلون مزيجاً متنوعا من أصول تركية وإيرانية وأبيروقفقاسية، وأوضاعهم الاجتماعية متفاوتة ما بين عشيرة تعيش حياة ما قبل الإقطاع، وبين حياة إقطاعية متطورة، وعلى الرغم أيضا من انهم لم يكون منظمين قط ولا أندمجو في اتحاد صفة الدولة، وقد أعلنوا إسلامهم في فترات متباعدة فانهم استطاعوا الصمود أمام الغزو الروسي، وكان رباطهم الرئيسي للوحدة هو إيمانهم العميق بالعقيدة الإسلامية فكانت حافزهم للجهاد[28].

إرهاصات – ثورية

ظلت المقاومة الوطنية لسكان المنطقة مشتعلة في الجبال، وكان عمر كل

(25) Basil Bmytryshun, A history of Russia, (New Jersey: 1977), p. 359.

(26) أرمينوس فامبري، تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة احمد محمود الساداتي، (القاهرة: المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، 1965)، ص 485.

(27) History of the USSR, op. cit. p. 177.

(28) Jesse. D. Clarkson; Ahistory of Russie from the ninthcentury, (London: 1962), p. 742.

ثورة اقصر من سابقتها، وكانت القوات الروسية تخمدها بكل قسوة ويعدمون قادتها وينفون سكان المناطق الثائرة إلى سيبريا وغيرها من المنافي ويدمرون قراهم[29].

وفي عام 1818 اشتعلت نيران ثورة جديدة قادها بعض أمراء الداغستان والناطق المجاورة ضد الاستيطان الروسي، إلا انها جوبهت بكل قسوة وعنف من حاكم المنطقة الروسي برمولوف، وقد بذلت القوات الروسية جهودا كبيرة حتى استطاعت إخماد الثورة، وعوقب أمراء المنطقة بإلغاء ألقابهم الخاصة، كما أقام الروس حصون ومراكز عسكرية في المنطقة، وأرسلوا ضباطا روس ليعلموا كمستشارين لدى أمراء المنطقة ومراقبين لهم في نفس الوقت[30]. وبذلوا جهودا وأنفقوا أموالا طائلة حتى استطاعوا استمالة البعض من السكان إلى جانبهم واصبح هؤلاء دعاة للروس طمعا في منصب أو جاه، كما وأصبحت المنطقة خالية من العلماء العاملين والمرشدين الروحيين، مما شجع البعض على انتحال صفة العلماء والقضاة ونجح هؤلاء في تحسين صورة الغزاة الروس لدى البسطاء من السكان الذي اخذوا يرسلون أبنائهم للدراسة والعمل في الوظائف الحكومية الروسية أو للانخراط في الجيش الروسي كجنود أو ضباط[31].

ان شعوب المنطقة لم تستكن للاحتلال رغم مظاهر الخفوت والسكون التي عمت تلك الأصقاع وكانت الطريقة النقشبندية قد بدأت بالانتشار في الداغستان على يد السيد جمال الدين القموقي والشيخ محمد اليراغي، وظهر ما عرف باسم

(29) أ. أ. أدميرو؛ وصية شيشاني لأخيه، ترجمة حميد يونس، (الأردن: مكتبة الشباب ومطبعتها، 1988)، ص 23.

(30) ستودارد، المرجع السابق، ص 190؛ كلكجي، المرجع السابق، ص 41.

(31) الداغستاني، المرجع السابق، ص 649.

(المريدين) وهم مشايخ الطرق الصوفية وأنصارهم[32]. وكان علماء ومشايخ الطريقة النقشبندية يعملون على نشر أفكار الثورة والجهاد لطرد المحتلين الغزاة، كما وكانوا يرفعون شعارات الإصلاح الاجتماعي والديني والعودة إلى الاصول الإسلامية واستبعاد ما علق بها من البدع والخرافات والأوهام، وكان على راس هؤلاء القاضي ذو الجناحين الغازي محمد الكمراوي، وهو من قبيلة اوار القفقاسية ومن المتعمقين في الدين واللغة العربية، وله كتاب بعنوان (إقامة البرهان على ارتداد علماء داغستان) ويسميه الروس (قاضي ملا)[33].

وفي عام 1829 بدأ القاضي محمد الكراوي عمله الجهادي، حيث لم يكتف الكمراوي بنشر دعوته الإصلاحية بل عمد إلى إيجاد سند قوي لهذه الدعوة فبدأ بتجنيد المؤيدين لدعوته وتدريبهم على فنون القتال، وشكل منهم فرقا خاصة لتأديب الخارجين على دعوته وللإغارة على المراكز العسكرية الروسية[34].

أمام تنامي خطر الثورة، عملت روسيا على تحشيد قواتها ضد الثورة وقائدها وحاصرت الكمراوي مع بعض اتباعه في قريته (كمرا)، في 28 تشرين الأول 1832 مما اضطره للتحصن في أحد البيوت، وبعد ان شدد الروس الحصار عليه وعلى اتباعه خرج مقاتلا حتى استشهد[35].

بعد استشهاد الكمراوي، اجتمع العلماء والأعيان وأصحاب الشأن وانتخبوا إماما جديدا زميل كفاحه حمزة بك بن علي بك إسكندر الخمزاخي إماما ثانيا وقائدا للثورة فكان ان سار حمزة بك على خطى ونهج الكمراوي في تنظيم الصفوف

(32) عزت باشا، المصدر السابق، ص 142؛ الداغستاني، المرجع السابق، ص 650.

(33) خورشيد، المرجع السابق، ص 107؛ حسون، المرجع السابق، ص 115.

(34) الداغستاني، المرجع السابق، ص 650؛ Demtry shun; op. cit. p. 359 – 360 .

(35) ستودارد، المرجع السابق، ص 190؛ حسون، المرجع السابق، ص 128.

وحشد الاتباع ومواصلة القتال ضد المرتدين والخارجين والمخالفين لشرع الله وكذلك ضد الروس، وبعد عامين من الجهاد تعرض حمزة بك لعملية اغتيال حيث كان ذاهبا لأداء صلاة الجمعة في قريته (خمزاخ) أواخر عام 1834[36].

التمهيد لثورة جديدة

بعد اغتيال الإمام الخمزاخي تم انتخاب القائد الشاب محمد شامل (1798 – 1871) إماما جديدا وهو من قرية (كمرا) نشا فيها وتعلم في مدارس المساجد المنتشرة في قرى داغستان، واخذ بحظ لا باس به من الدراسات الدينية والعربية، انتظم في سلك مريدي الطريقة النقشبندية ومن أنصار صديق طفولته الإمام محمد الكمراوي وقائدا لفرق المجاهدين[37]. وقد استطاع الإفلات من الأسر عدة مرات، وتمكن مع بعض مقاتليه من إعادة تنظيم صفوف المجاهدين[38].

قبل تولي الإمام محمد شامل قيادة الثورة، كانت أمور المنطقة والثورة تسير على الفطرة والطبيعة البدائية والأساليب والأعراف القبلية، وبعد تولية قيادة الثورة، دخلت منطقة القفقاس وثورتها عهدا جديدا، حيث انبعثت الآمال من جديد في طلب الحرية، واشتعلت نار الحماسة في نفوس أولئك الجبليين، وتحولت الثورة إلى حرب منتظمة وقيادة شابة محنكة وجنود مدربين، وانتقلت من حالة ردود أفعال ضد قوات الاحتلال الروسية إلى حركة عامة شاملة لها مقر وقيادة.

(36) برهان الدين الداغستاني، "الشيخ شامل زعيم القوقاز وزعيم المجاهدين"، مجلة الرسالة، العدد 728، س15، 16يونية 1947.

(37) المرجع نفسه، ع 727، ص 650. ومن الجدير بالذكر أن أحد المراجع يذكر أنه نشأ في قرية (أوار). انظر: حسون، المرجع السابق، ص 128.

(38) حسون، المرجع السابق، ص 128.

كان الإمام محمد شامل مدركا حجم الإمكانيات الهائلة التي يمتلكها أعداؤه الروس من حيث العدة والعدد قياسا لإمكانياته، لذا فقد عمل على إعادة تنظيم صفوف قوات المقاتلين وبناء جيش مدرب خاضع لنظم وقوانين صارمة كما عمل على بناء قواعد ومرتكزات ثورية.

ابتدأ الإمام شامل عمله بالقضاء على أحد أسباب ضعف البلاد وشرذمتها، فعمد إلى توحيد عدد من القبائل الجبلية في القفقاس الشمالي[39]. وشكل مع زعماء ووجهاء واعيان هذه القبائل حكومة متحدة برئاسته، وكون نظام دولة مركزية فريدة من نوعها في تلك المنطقة قائمة على نظام الإمامة، وكان تنظيمها يخضع كليا لصالح الجهد العسكري والحرب ضد روسيا[40] ولما كان ملما بطبيعة المنطقة وواعيا لتعددية الاثنيات فيها، فقد عمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، ملتزما جانب الحزم في تحقيق هذا الهدف، وكان ينصح الناس ويحثهم في بعض الأحيان، ويلجأ إلى استخدام القوة أحيانا أخرى[41].

من اجل تمويل الثورة وديمومتها، انشأ قائد الثورة وإمامها مؤسسة مالية (بيت المال) حسب نصوص الشريعة، وعين لهذه المؤسسة الجباة والأمناء والعاملين[42] وفرض الضرائب على السكان[43]. كما وعمل على توطيد نظام

(39) بيتر بيفانوف، أيفان فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة خيري الضامن نقولا طويل، (موسكو: دار التقدم؛ د. ت.)، ص 340.

(40) عزت باشا، المصدر السابق، ص 142؛ بيفانوف، المرجع السابق، ص 340.

(41) إياد القيسي، عماد محمد البغدادي، "بلاد الشيشان"، مجلة الحكمة، العدد 6، (لا. م) (صفر ـ 1416هـ)، ص 366 ـ 367.

(42) الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 678.

(43) بيفانوف، المرجع السابق، ص 340.

القضاء الشرعي في البلاد، فكان يعين القضاة الشرعيين في القرى والمناطق التي يفرض سلطته وسيطرته عليها، ويفصل هؤلاء بين الأهالي فيما يعرض عليهم من أحكام دينهم ودنياهم ويقيمون حدود الشريعة وتنفيذ أحكامها فيهم(44). كما وعين قادة في الأقاليم والمناطق يعرفون باسم (النواب) وتكون مهمة هؤلاء الأشراف على شؤون هذه الأقاليم والمناطق، وهم مسؤولين عن جباية الضرائب وتنظيم حركة المتطوعين والمقاتلين، والمحافظة على الأمن العام، وحماية السلطة القضائية، وتنفيذ أحكام القضاة(45).

اهتم الإمام شامل بالجانب العسكري، حيث عمل على تنظيم المقاتلين وتدريبهم والعناية بأسلحتهم وسن القوانين والأنظمة العسكرية، فبعد ان كان المقاتل يتحمل جميع نفقاته من حيث المأكل والملبس والسلاح، جعل له نصيب من الغنائم، وبعد حسم خمس الغنائم للمؤسسة المالية، يوزع الباقي على المقاتلين، كما وأقيمت معسكرات التدريب وعين عليها الضباط، بالإضافة إلى تعيين قادة فرق وتشكيلات المقاتلين(46). وجعل لهذه الفرق والتشكيلات أعلاما مطرزة بشعارات إسلامية وبخط عربي منها (لا اله إلا الله، محمد رسول الله) و (نصر من الله وفتح قريب)(47).

---

(44) عزت باشا، المصدر السابق، ص 143؛ الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 678.

(45) الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 678؛ بيفانوف، المرجع السابق، ص 340.

(46) عزت باشا، المصدر السابق، ص 143؛ الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 677 ـ 678.

(47) برهان الدين الداغستاني، "الشيخ شامل زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين"، مجلة الرسالة، العدد 730، س 15، 30 يونية 1947، ص 837.

لم يغفل الإمام شامل الجانب الإعلامي والتثقيفي وأهميته في ديمومة الثورة ورفدها بمقاتلين جدد، بالإضافة إلى رفع معنويات المقاتلين وتمسكهم بمبادئ الثورة، حيث عين وأرسل الوعاظ والمرشدين إلى القرى والمدن والأقاليم لشرح أمور الدين الحنيف وتحريض الناس على الثورة والجهاد، وكانت النتيجة لصالح الثورة، حيث استجابت أعداد غفيرة من أبناء القفقاس الشمالي لدعوة الثورة ونداءاتها للنهوض بالبلاد تحريرها من المحتل وإقامة دولة إسلامية[48].

إعلان الثورة

استفاد الإمام شامل من طبيعة المنطقة لبدء عملياته القتالية، حيث كانت الجبال العالية تغطيها الغابات، والأنهار سريعة الجريان والوديان ضيقة لا تسمح بقيام عمليات عسكرية كبيرة وبقوات ضخمة، لذا فقد اتبع خطة دفاعية في بداية الثورة، ثم بدأ بشن الغارات على القلاع والوحدات الروسية المتواجدة في المنطقة[49]. وإزاء تنامي الثورة وانتشار نفوذها وتأثيراتها على المنطقة وما جاورها، واكتساب المقاتلين وقائدهم سمعة أسطورية، حاول الروس استمالة الإمام شامل، وكلفوا أحد صنائعهم من الأمراء والمدعو شامخال غزانمش[50] للاتصال به والطلب منه التوجه إلى مقر حاكم القفقاس في مدينة (التبليس) - حاليا عاصمة

(48) ستودارد، المرجع السابق، ص 190؛ حسون، المرجع السابق، ص 128.

(49) عزت باشا، المصدر السابق، ص 143؛ بيفانوف، المرجع السابق، ص 339.

(50) لقب يطلق على بعض حكام الأقاليم والرؤساء في القفقاس الشمالي.

جمهورية جورجيا - لاستلام أمر تعيينه أميرا وإماما للداغستان، إلا أن الإمام شامل رفض[51].

في عام 1837 جهزت روسيا جيشا قوامه (400) ألف مقاتل للقضاء على الثورة، وأطلق على العملية اسم (حملة لواء فيز)، فكان أن تعرض الجيش الروسي لخسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، وكانت تضحيات المقاتلين استشهاد (100) مقاتل[52].

على اثر هذه الهزيمة المنكرة عاود الروس الاتصال بالإمام مرة أخرى، حيث اتصل به القائد الروسي (كلك) وأعاد عليه العرض السابق شرط إنهاء الثورة، إلا انه جوبه بالرفض، وتكررت المحاولة عام 1839، إلا انها باءت بالفشل أيضا[53].

أمام التحدي الدائم الذي فرضته الثورة والرفض المتكرر للإغراءات وعروض السلام، وشعور روسيا بالخطر الذي باتت تمثله هذه الثورة على التواجد الروسي في المنطقة برمتها، عزم الروس على إنهاء الثورة بالقوة المسلحة، لذا فقد جهزوا جيشا كبيرا رفدوه بأفضل الجنود والضباط والأسلحة، وفي 20 آب 1839، وقعت معركة كبيرة في بلدة (أخولكو) الداغستانية هزمت فيها قوات الثورة، واكتسحت القوات الروسية بلاد الداغستان بأكملها، واضطر قائد الثورة إلى اللجوء إلى بلاد الشاشان مع بعض مقاتليه[54].

---

(51) Jenny vonmayer, "Islam and National Responsibility", The moslem world, vol. IV. No. 2, April, 1914, p. 137; الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 679 .

(52) القيسي، المرجع السابق، 366.

(53) الداغستاني، المرجع السابق، ع728، ص679.

(54) بيفانوف، المرجع السابق، ص 340.

احتضان الشاشان للثورة

بعد انتقال الإمام شامل إلى موقعه الجديد، وجد الدعم والمساندة من الشعب الشاشاني مما أطال في عمر الثورة عشرين سنة أخرى، وانتقلت قيادة المقاومة والحرب إلى الأرض الشاشانية التي أصبحت ساحة الحرب الجديدة ضد قوات الاحتلال الروسي، بعد أن كانت مساهمتها بالرجال والعتاد والمؤن.

شكل الإمام شامل قيادة جديدة تتناسب والوضع الجديد، وتكونت غالبية القيادة من وجهاء الشاشان ومتنفذيهم(55). كما وأرسل النواب للدعاية للثورة وكسب الأنصار والمقاتلين في القفقاس الشمالي والمناطق المجاورة، وكان اشهر هؤلاء النواب النائب الثالث الشيخ محمد أمين الذي نجح في ضم جراكسة كوبان بزعامة الحاج (كراندوق بك) إلى جانب الثورة، وكان لهؤلاء دورا في الاستيلاء على عدد من القلاع الروسية بالإضافة إلى مشاغلة القطعات الروسية في المنطقة(56).

عاود الإمام شامل هجماته على القطعات والمواضع الروسية ابتداء من عام 1840، مكبداً الروس خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات(57).

كان الإمام شامل يعمل باستمرار على تغذية ثورته بكل ما يمكنها من الديمومة والاستمرار والصمود، وإدراكا منه لأهمية الأسلحة الثقيلة في المعارك، لذا فقد شجع خبير الأسلحة وصانعها الماهر الحاج جبرائيل على صنع مدفع، فكان

(55) أدميرو، المصدر السابق، ص 28.

(56) عزت باشا، المصدر السابق، ص 143.

(57) المصدر نفسه، ص 143؛ القيسي، المرجع السابق، ص 330.

ان بدأ إنتاج مدفعية الثورة منذ عام 1843[58]. الأمر الذي كان له أثره الفعال في اشتداد ساعد الثورة ورفع معنويات المقاتلين بالإضافة إلى الاعتماد على النفس في صنع أسلحة الثورة وعدم الاقتصار على المساعدات وما يمكن الحصول عليه من الغنائم من أسلحة العدو.

في أوائل عام 1843 حقق الإمام شامل اعظم انتصاراته على الروس حيث انتصرت قوات الثورة على قوات القائد الروسي الجنرال (كرف) في معركة فاصلة، اضطر القائد الروسي على أثرها الانسحاب واللجوء إلى قلعة (شورا)[59]. وفي عام 1844 حشدت روسيا (200) ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال (فورتزوف)[60]. وشنت حملة جديدة ضد الثوار إلا انها تعرضت لهزيمة جديدة، واستطاعت قوات الثورة فتح الحصون والاستيلاء على معاقل الروس في الجبال، واسر العديد من الجنود والضباط، بالإضافة إلى غنائم المؤن والأسلحة بضمنها (35) مدفع، واضطرت القوات الروسية للانسحاب واقتصر تواجدها على الأراضي الساحلية[61].

زادت شهرة الإمام شامل اثر انتصاراته المتتالية، فكان ان راسله الجركس للقدوم إلى بلادهم، ودخولهم في طاعته، وفي عام 1846 عزم الإمام على اجتياز الحدود وتلبية النداء. وجهز جيشا من المشاة والخيالة ترافقهم قوات من المدفعية مع سبعة مدافع مع اعتده خفيفة وثقيله، واجتاز جيش الثورة نهر (ترك) ونزل ببلاد

(58) برهان الدين الداغستاني، "الشيخ شامل زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين"، مجلة الرسالة، العدد 729، س15، 23 يونية 1947، ص 704.

(59) الداغستاني، المرجع السابق، ع 728، ص 679.

(60) نخلة قلفاط، تاريخ روسيا الحديث، جـ3، (بيروت: 1887)، ص 161.

(61) خورشيد، المصدر السابق، ص 108.

القبرطاي الواقعة في الشمال الغربي للداغستان، واخذ ينشر تعاليمه بين الناس، وعمل على تنظيم بلاد الجركس، وبينما هو منشغلاً، دبر الروس كمينا لمحاصرته وقطع خطوط الرجعة، إلا ان الإمام شامل استطاع شق طريقه عائدا إلى جبال داغستان بعد معركة فاصلة تعرض فيها جيش الثورة إلى خسائر كبيرة في المقاتلين والأسلحة(62).

ان الهزيمة التي تعرضت لها قوات الثورة في هذه الجبهة لم تَفُتَّ في عضد الثوار في الجبهات الأخرى، حيث قامت قوات نائب الإمام شامل في جبهة الشاشان القائد الشاشاني (جيخوي سعدالله) في عام 1848 بإنزال هزيمة ساحقة بالجيوش الروسية وجنرالاتها في منطقة مارتان، ولكثرة خسائرهم اضطر الروس إلى الانسحاب إلى حصونهم المنيعة، وكانوا يدمرون القرى والبساتين والحقول المزروعة عند انسحابهم، كما كانوا يرمون خيولهم الميتة في الآبار، وقد ردت قوات القائد جيخوي سعدالله بقتل جندي مقابل كل ثمرة قطعوها(63).

وفي عام 1850 استطاع الثوار صنع البارود في بلادهم مما جعلهم يتحررون من الضغوط الخارجية وعملية الاستيراد، والاعتماد على النفس في صناعة بعض المتطلبات العسكرية. وفي 13 تشرين الأول 1853، وكتعبير عن تنامي قوة الثورة، قام الإمام شامل بتجييش الجيوش، واجتاز حدود بلاد جورجيا (الكرج) وحاصر قلعة زنطة، واضطر قائد القلعة الجنرال (جوجوزة) إلى تسليمها، ثم انتشرت قوات الثورة تغير على القرى والثكنات، وبعد اسر العديد من الجنود والضباط والحصول على الغنائم، عاد قائد الثورة وقواته المنتصرة إلى مقر قيادته،

(62) الداغستاني، المرجع السابق، ع 729، ص 704 ـ 705.

(63) أدميرو، المصدر السابق، ص 44 ـ 45.

وقد قتل من الروس نحو (2000) مقاتل، وكان عدد الأسرى نحو (894) شخص وكان من بين الأسرى زوجة قائد قلعة زنطة وابنته وعدد من النساء الأخريات من بنات الذوات، وفي أواخر 1854 وبعد تسعة اشهر من تلك المعركة تمت مبادلة الأسرى بين الثوار والحكومة الروسية وحلت هدنة غير رسمية[64].

طيلة فترة حرب القرم (1853 – 1856) انشغلت القوات الروسية في القتال ضد الدولة العثمانية وحليفتيها في هذه الحرب إنكلترا وفرنسا، لذا فقد حاولت جهدها تحييد جبهة القفقاس الشمالية وإقرار حالة من الهدوء، ولم تكن هناك عمليات عسكرية إلا في جبهة الشاشان[65]. وكانت الظروف ملائمة لإعلان قيام دولة مستقلة في القفقاس الشمالي إلا ان عقد الصلح بين الدول المتحاربة في حرب القرم حال دون ذلك[66].

بداية النهاية

إن فترة الهدوء التي عاشتها المنطقة أثناء حرب القرم كانت لها نتائجها العسكرية على الثورة، فالحرب القفقاسية الشمالية طال أمدها، واثر ذلك تأثيرا بالغا في السكان المحليين، ولم تعد هناك أسرة لم تفقد زوجا أو ابنا أو أبا أو أخا، بل ان عائلات بأكملها تعرضت للإبادة، ودمرت قرى بأكملها وظلت الأرض سنيناً طويلة دون زراعة، ولم يعد هناك من يهتم بالبساتين، سواء في ارض الداغستان حيث كان يعيش الإمام شامل أم في ارض الشاشان بعد أن أصبحت هي الأخرى ساحة حرب،

(64) الداغستاني، المرجع السابق، ع729، ص705.

(65) أدميرو، المصدر السابق، ص 111.

(66) عزت باشا، المصدر السابق، ص 143.

كما ان التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية ونبذ العادات والتقاليد القديمة، وأسلوب البعض من النواب في جباية الضرائب القديمة (ضريبة المراعي) غير الشرعية وفرض ضرائب جديدة فضلاً عن تطبيق القوانين التي تفرضها الثورة وبشكل صارم دون أي مرونة، جعل التذمر ينتشر بين السكان والمقاتلين[67]. كما ولجأت روسيا إلى أسلوب الإغراء وبذل الوعود للأمراء والقواد والتلويح بالرتب والنياشين والمناصب وإنفاق المبالغ الضخمة لشراء الذمم[68].

انتشر التذمر في صفوف الشاشان وضاقت نفوسهم ذرعاً من نظام حكم الإمام شامل الذي لا يساير تقاليدهم، لكن الخشية من إضعاف الثورة أمام القوات الروسية جعلتهم يسايرونه ويقاتلون معه سنين طويلة إلا أن طول فترة الحرب والدمار الذي تعرضت له بلاد الشاشان، جعل البعض من الوجهاء يدعون للتخلي عن الثورة، كما وكان عدد من النواب يروجون للرحيل إلى الدولة العثمانية حيث الراحة والحرية ومن هؤلاء النواب جيخوي سعدالله، زاند قوي شحبولت، جيزلوي خاسو، بلتوني مولانوركيشي وغيرهم إلا أن عدداً كبيراً من الشاشانيين إلتحقوا بالإمام شامل في جبال داغستان – فيما بعد – بقيادة القائد الشاشاني بويسغر[69]. وقد وصلت دفعة من المهاجرين الشاشانيين إلى الدولة العثمانية في الفترة (1858 – 1859) وقبل نهاية الثورة، وفي الفترة نفسها عقد القائد الروسي برياتنسكي معاهدة سلام مع الشاشانيين، تعهدت الحكومة الروسية بموجبها: عدم نزع سلاح الشاشان في بلادهم، وعدم تجنيدهم في الجيش الروسي، والمحافظة

(67) خورشيد، المصدر السابق، 108 . History of the USSR; op. Cit. P. 209

(68) القيسي، المرجع السابق، ص367 – 368.

(69) أدميرو، المصدر السابق، ص 16 – 18.

على دينهم وتقاليدهم وعدم المس بأراضيهم[70]. واضطر بعدها الإمام شامل إلى العودة مجدداً إلى عرينه في جبال الداغستان.

نهاية الثورة

بعد تأمين الجبهة الشاشانية، عملت روسيا إلى حشد جيش بلغ تعداده (300) ألف مقاتل مجهزين بأحسن الأسلحة[71]. ومزودين بأحدث الخطط والخرائط التي وضعت للمنطقة منذ سنوات حرب القرم حيث كانت الفرق الجيوفيزيائية تقوم بأعمال المسح في أعقاب العمليات الحربية ووضع الخرائط وتحديد المواقع[72]. ومن جانب آخر لم يبق مع الإمام شامل من جيشه الذي كان قد بلغ (60) ألف مقاتل[73]. سوى (300) مقاتل فضلاً، عن عدد من النساء[74].

بعد إكمال استعداداتها العسكرية واللوجستية، شنت القوات الروسية هجوما كبيراً على حصون الإمام شامل في جبال داغستان، وبدأت تضيق الخناق على المقاتلين الذين اخذوا ينتقلون من موقع لآخر، حيث حاصرت القوات الروسية مقر الإمام شامل المحصن في (فديني) عام 1858، مما اضطر الأخير إلى الانسحاب[75]. ثم شنت هجوماً آخر على ما تبقى من قوات الثورة المحاصرين في

(70) المصدر نفسه، ص 22 ، 40 ؛ Clarkson, op. Cit, P, 397 .

(71) عزت باشا، المصدر السابق، ص 144.

(72) ب. م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة وتعليق معروف خزنة دار، (الجمهورية العراقية: دار الرشيد للنشر، 1981) ، ص 276 ـ 277.

(73) القيسي، المرجع السابق، ص367.

(74) الداغستاني، المرجع السابق، ع 729 ، ص 706.

(75) نخلة قلفاط، تاريخ روسيا الحديث، جـ4، (بيروت: 1888)، ص47.

مقر القيادة الجديدة في قلعة (يكي درغية)، وطال الحصار مدة أربعة اشهر اضطر الروس بعدها لفك الحصار، مما أتاح للإمام ومقاتليه المحاصرين للخروج والتوجه إلى قرية (ايشجيلي) والمرابطة فيها، إلا أن القوات الروسية ما لبثت أن عاودت الهجوم، واستمر القتال طوال شهري حزيران وتموز، وفي 31 تموز 1859 اضطر الإمام شامل إلى الانسحاب إلى قلعة (غوينتب) وتحصن فيها. وكانت أوامر القيصر الروسي الكسندر الثاني (1855 – 1881م) تقضي بإلقاء القبض على الإمام شامل حياً مهما كلف الأمر، ولهذا أخذت القوات الروسية تضيق الحصار على القلعة، وفي الوقت نفسه طلب قائد القوات الروسية من قائد الثورة التسليم مع الوعد بالإبقاء على حياته وحياة من معه من المقاتلين والنساء والأطفال[76].

إزاء الرفض المتكرر من قبل قائد الثورة وإمامها[77]، لم تجد القوات الروسية بداً من اقتحام الحصن من الخلف، واستطاعت أعداد غفيرة منهم التسلل إلى الداخل، فانسحب الإمام مع مقاتليه إلى مسجد الحصن مواصلين القتال، ومرة أخرى طلب قائد القوات الروسية من الإمام شامل الاستسلام، مع وعد بان يسلم هو ومن معه إلى سلطات الدولة العثمانية، وانطلت الخدعة على بعض المقاتلين حيث ألح عدد منهم على الإمام بعدم تفويت الفرصة، فنزل الأخير على إرادتهم وسلم نفسه مع نحو عشرين مقاتلاً إلى القائد الروسي الجنرال باریاتنسكي في 6 أيلول 1859[78]. ونقل إلى بطرسبورغ حيث اعتقل لفترة طويلة[79]. ثم استسلم النائب محمد أمين هو الآخر[80].

(76) الداغستاني، المرجع السابق، ع 729، ص 706.

(77) خير الدين، "شيخ شاملي"، ترقي ، نومرو 153، 24 صفر 1286هـ (5 حزيران 1869م).

(78) ترقي، نومرو 71، 28 شوال 1285 هـ (10 شباط 1869).

مع نهاية الثورة في بلاد الداغستان وسكونها في بلاد الشاشان، لم يبق إلا بعض بؤر المقاومة هنا وهناك وفي بلاد الجركس، وبهذا فتح المجال أمام القوات الروسية لاقتحام منطقة القفقاس الشمالي، فبدأت إجراءاتها القمعية لإخضاع المنطقة برمتها للحكم الروسي، فخرقت المعاهدة مع الشاشان ودمرت قراهم وأجبرتهم على الرحيل، ووزعت أراضيهم ومزارعهم على الاتباع والموالين[81]. وفتحت أبواب السجون والمعتقلات، وتم إعدام أعداد كبيرة من المقاتلين وعلى رأسهم القائد الشاشاني بويسغر[82].

أنساحت القوات الروسية في متابعة غزوها المنظم لبقية المناطق حتى استطاعت اكتساح بلاد الجركس في فترة (1863 – 1864)[83]. وبذا تم للروس احتلال القفقاس الشمالي بعد سنوات طويلة من الحروب المدمرة، مما يشير إلى عمق المقاومة الباسلة وعنفها بقيادة الإمام الصوفي المقاتل محمد شامل وشعوب الداغستان والشاشان والجركس.

ملخص

شهدت منطقة القفقاس الشمالي ثورات عديدة ضد الاحتلال الروسي الذي كان يفرض سلطته على المنطقة ومن اشهر هذه الثورات ثورة الإمام الشيخ محمد شامل والتي استمرت ربع قرن (1834 - 1859) وكان لها صداها في المنطقة مما جعلها نموذجاً

(79) الداغستاني، المرجع السابق، ع 730، ص 736 ؛ Clarkson; op. Cit; P; 397 .

(80) القيسي، المرجع السابق، ص 371.

(81) أدميرو، المصدر السابق، ص 22.

(82) قلفاط، المصدر السابق، جـ 4، ص 47؛ أدميرو، المصدر السابق، ص 16 – 17.

(83) كلكجي، المرجع السابق، ص 33 ؛ History of the USSR; Op. Cit; P 209.

لثورة إسلامية في ذلك الوقت حيث رفعت الثورة لواء إقامة دولة إسلامية تضم سكان تلك المناطق.

وكما عرفت الثورة الانتصارات فانها تعرضت إلى الهزائم مما جعلها تنتقل من بلاد داغستان إلى الشاشان ومن ثم العودة إلى الداغستان لمواصلة الجهاد، إلا إنها وبسبب من ظروف محلية تعرضت إلى الحصار والهزيمة ومن ثم اضطر قائدها إلى الاستسلام. ومع انتهاء الثورة، فسح المجال أمام الروس لاستكمال إجتياحهم لمنطقة القفقاس الشمالي.

Abstract

Dr. Esmat Brhaan aldeen A. *(*)*

North Caucasia witnessesd many revolutions against the Russian occupation. One to the most famous revolution was led by Al-Imam Muhammad Shamil Which lasted more than 25 years (1834-1859), and extended on vast area, giving a model of Islam (Religious) Revolution.

This revolution faced setbacks, so it removed to Chichnia for a time, then back to Daghstan many obstacles obliged the revolts to put arms off and leader to surrender. Russia thence had free hand to containue its invasion this Islamic area.

(*) College of Arts / University of Mosul.